شروط النصر والتمكين في أمور الدنيا والدين

دراسة في واقع الأمة وشروط نهضتها

(٢-٢)

أ . د . محمد عثمان صالح
الأمين العام لهيئة علماء السودان
أستاذ كرسي الدراسات الإسلامية ومقارنة الأديان بجامعة أمدرمان الإسلامية

الفصل الثالث

جهاد النفس وجهاد الدفع

توطئة :

بعد الشروط التي تحدثت عنها في العدد الحادي عشر [١] يأتي جهاد النفوس، ومن مباحثه جهاد كل فرد في المجتمع نفسه حتى تستقيم على الجادة ومن ثم تشارك في إصلاح المجتمع بطريقتين :

الطريقة الأولى كونها صالحة في ذاتها مثل لبنة سليمة قوية تشد بنيان المجتمع كما جاء في الحديث النبوي (المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا) [٢] ولا يكون هذا إلا بصالح اللبنة الطيبة في البنيان .

والطريقة الثانية مشاركتها في إصلاح المجتمع أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر وهذا هو الفعل الإيجابي الذي يجعل النفس المؤمنة الصالحة ذات أثر قوي في من حولها، فلا تقر ترك المعروف من السلوك أو الفعل الحضاري ولا تسكت على فعل المنكر الذي يدمر بنيان المجتمع ولو كان سلوكاً شخصياً .

وقد جاء في التوجيه الرسالي : (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعذاب منه) [٣].

ثم يأتي بعد ذلك جهاد الدفع الذي أشارت إليه الآية الكريمة : (وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ) (البقرة ٢٥١)، وهذا الجهاد كما هو معلوم يقوم به الحاكم ويعاونه المؤمنون وهذا جهاد السنان، وهناك أنواع من الجهاد لا تتوقف على أمر الحاكم ولكن يسع الجميع القيام بها : منها جهاد اللسان، وجهاد القلم، وجهاد القدوة الحسنة، والجهاد بالنفس والمال كما قال تعالى : (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّه وَرَسُوله ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ) (الحجرات ١٥) وسياتي التفصيل في المباحث التالية .

المبحث الأول :

جهاد النفس :

ونعني مجاهدة كل مسلم نفسه حتى تستقيم على منهج الله تعالى، وهذا يقتضي قوة العزيمة، وصرامة الشكيمة كما قال الشاعر الحكيم :

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم [٤]

وهذه سجية وخصلة معلومة، يهذبها حسن التأديب حتى تخرج من الحيوانية إلى الإنسانية، قال تعالى وهو العليم الحكيم (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا × فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا × قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا × وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) (الشمس ٧-١٠) والله سبحانه وتعالى لم يترك الإنسان لنزواته وشهواته، وإنما قاده إلى مستقيم الصراط بما أعطاه من العقل ووسائل المعرفة قال تعالى : (أَلَمْ نَجْعَل لَّهُ عَيْنَيْنِ (٨) وَلِسَاناً وَشَفَتَيْنِ (٩) وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ (١٠) فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ (١١) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ (١٢) فَكُّ رَقَبَةٍ (١٣) أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ (١٤) يَتِيماً ذَا مَقْرَبَةٍ (١٥) أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ (١٦) ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ (١٨) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ (١٩) عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ (٢٠) (البلد ٨-٢١) فهذه هي الخصال التي يجاهد فيها المتربي نفسه حتى تخرج من الشح والطمع إلى الإيثار والكرم .

ومعلوم أن جهاد النفوس لا يسهل إلا في تربية جماعية يقوم عليها مربٍ خالص النية أو مؤسسة عقدية تربوية .

لقد شبه المصطفى صلى الله عليه وسلم حياة الناس كمن ركبوا في سفينة والجميع يحتاجون إلى إستمرارها على الجادة فإن استقاموا إستقامت وإذا خربوها هلك الجميع كما جاء في الحديث [٥] .

وهكذا فعل المعلم الأول محمد صلى الله عليه وسلم معلم الإنسانية الخير الذي بعثه الله معلماً فقام على تربية الجيل الأول من المسلمين فأعطاهم مفاتيح الخير كلها حتى أن الإعرابي رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتعهد أصحابه بالإرشاد والتوجيه قال لهم : "إنه يعلمكم حتى الخراءة" [٦] كيف لا !! والنبي قد بعث معلماً .

والتعليم تأتي معه القدوة الصالحة التي تؤثر في الناس وهنا نذكر قول الشاعر الحكيم أيضاً :

إبدأ بنفسك فانهها عن غيّها
فإذا انتهت عنه فأنت حكيم [٧]

ومالنا نذهب بعيداً فالقرآن الكريم نقرأ فيه (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ

كثيرا) (الأحزاب ٣) .

فهذه الأسوة والقدوة هي التي أخرجت الرجال الصناديد الذين عمروا الدنيا بالمعاني والمباني أقاموا العدل والحرية والمساواة بعد أن أدبوا الجبابرة في شرق الدنيا وغربها .

وهذا ربعي بن عامر الصحابي الجليل -رضي الله عنه- يقول لكسرى فارس حين سأله ما جاء بكم ؟ فقال رضي الله عنه - الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد لعبادة رب العباد ومن جور الدنيا إلى سعة الآخرة .[٨] .

هذه هي الرسالة مختصرة في كلمات قلائل لكنها حوت لب الألباب .

المبحث الثاني :

إصلاح المجتمع :

من شروط النصرو التمكين المهمة السعي لإصلاح المجتمع، فالمجتمع الصالح المستقيم تنزل عليه الرحمة والبركة والأمن والإستقرار بعكس المجتمع المنحرف الفاسد فإن حاله يؤول إلى التفكك والسقوط، إن الحضارات التي سادت ثم بادت جرى عليها هذا القانون الطبيعي، بل هذه السنة الإلهية الكونية . وهي مشاهدة في آثارها وأخبارها وفي الكتب المنزلة . وقد جاء في القرآن الكريم قوله تعالى : (فَلَوْلاَ كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُواْ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُواْ مَا أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ × وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ)(هود ١١٦-١١٧).

وإصلاح المجتمع فيه ضمان إستقراره وإستمراره وذلك واجب الفئة المؤمنة التي ترفض الظلم والإثم، وتقاوم البغي والعدوان. وعملية الإصلاح الإجتماعي عملية تحوطها المصاعب الجمة ولكنها يسيرة على من يسرها الله لهم إذ أن جل الناس يقاومون التغيير ويحبون ما ألفوا. وهكذا كان حال الجاهليين حين قالوا للداعية العظيم محمد صلى الله عليه وسلم : (إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ) (الزخرف ٢٣). لم يرضخوا لنصحه ولا استجابوا لدعوته وإنما قاوموه وتعرضوا لأصحابه بصنوف الأذى. ولكن كان عاقبة الذين أساءوا سوء العقاب كما جاء في التزيل : (ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُون)(الروم ١٠) .

أما القائمون على أمر الله إحتساباً للأجر فهم الناجون في دنياهم وآخرتهم بعكس المتقاعسين عن الحق قال سبحانه : (فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابٍ بَئِيسٍ

بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ)الأعراف (١٦٥).

إن هذه العملية الإحتسابية التي يحتسب فيها الأجر على الله تعود أيضاً على القائمين بها صلاحاً وفلاحاً في الدنيا كما في الآخرة. إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أهم ممسكات المجتمع، بل من أهم شروط النصر والتمكين كما أشرنا إلى ذلك منذ بدء هذا البحث، وهنا لا تخفى على فطنة القارئ أو تغيب الآية الأكثر وضوحاً في الإستشهاد على هذا الموضوع والتي يسبقها (الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ × الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ) (الحج ٤٠-٤١).

فالتمكين للحاكم بعد الإيمان يستلزم منه العمل الإيجابي ومنه الحث على الصلاة التي تربط الصلة بين العباد ورب العباد، وهي داعية العمل الصالح ونافية العمل الطالح. حيث تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة منجاة من الجبن والبخل والكسل، حيث أن مُخرج الزكاة يزيد في نشاطه الإقتصادي حتى لا تأكل الزكاة ماله، ثم تطرح البركة في جهده وماله .

وأما النقطة الثالثة فهي بيت القصيد ومكان الشاهد حيث إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يرشد الناس إلى فعل الخير ويمنع عنهم فعل الشر . إنه الفعل الإيجابي الذي يبني القيم ويوقظ الهمم، ويبعد النهم، ثم يقود إلى الخير والنعم .

المبحث الثالث

كف الأذى وتجنب الظلم :

هذا التعليم الرسالي يوثق لمسيرة فيها العدل والرحمة بالناس أجمعين كما يحذر من عاقبة الإنحطاط في الظلم والإثم. روى جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (إتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم) [٩].

أقول : فأي فساد للمجتمع أكبر من تفشي الظلم بين الناس، وأي إثم أعظم من الشح- الذي هو الأثرة وحب الذات والأنانية- التي تعادي الآخرين وتحجب معاني الأخوة والإيثار وتمنع التعايش بين الناس ، ما ذكر في الحديث من آثار الشح كسفك الدماء وإنتهاك المحارم مشاهد اليوم في عالمنا المعاصر فقوى البغي والعدوان وقوى التمرد أو التسلط ركبت مراكب الشح والطمع فسالت الدموع والدماء، ولا عاصم

إلا بالتوبة والرجوع لمعالم الدين الحنيف . نجد هذا في توجيه المصطفى صلى الله عليه وسلم ومنه قوله : (لا تحاسدوا ولا تناجشوا ولا تباغضوا ولا تدابروا ولا يبيع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخوانا، المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يخذله التقوى هاهنا –ويشير إلى صدره ثلاث مرات– ثم يقول : بحسب إمرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام دمه وماله وعرضه[١٠] . فليراجع في هذا الموضوع قائمة الأمور المنهي عنها والتي تؤذي الناس [١١].

إن إتباع هذه التوجيهات يحقق الأمن الإجتماعي وتمتد إلى كل المجتمع فوائده بل تصل إلى غير المسلمين من المعاهدين والمواطنين والمستأمنين، وفي حديث أسماء بنت أبي بكر وسؤالها عن بر أمها المشركة شاهد على إعتناء الإسلام بالناس كافة [١٢] وقد أوصى النبي صلى الله عليه وسلم الفاتحين حين يفتحون مصر أن يرفقوا بأهلها وقد جاء في حديث أبي ذر رضي الله عنه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ستفتحون مصر وهي أرض يسمى فيها القيراط فاستوصوا بأهلها خيراً فإن لهم ذمة ورحماً) وفي رواية (فإذا فتحتموها فاحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً، أو قال ذمة وصهراً).[١٣] .

والآية الكريمة توضح ما أسلفناه حيث يقول الله تعالى : (لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ × إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) الممتحنة (٨-٩).

المبحث الرابع

جهاد الدفع حراسة للدنيا والدين :

لقد تقدم الحديث عن جهاد النفس وهو جهاد كبير وخطير لكنه يسير على من يسره الله له : (فكل ميسر لما خلق له) كما جاء في الحديث[١٤]، ثم يأتي بعده جهاد الدفع وهو منازلة الكفار والملحدين المعاندين ومقاومتهم بكل وسيلة تدفع أذاهم وشرورهم، وفي الهدي النبوي ألا يتمنى المسلمون لقاء العدو ولكن إذا كان إعتداء أو صد عن سبيل الله وجب على المسلمين القتال والثبات فيه، فقد روى عبدالله بن أبي أوفى رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أيامه التي لقي فيها العدو إنتظر حتى مالت الشمس ثم قام في الناس فقال : (أيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية فإذا لقيتم فاصبروا وأعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف) [١٥]. من هذا

النص نأخذ عدم التعجل في الحرب ودعوة العدو إلى كلمة سواء بكل الطرق التفاوضية والدعوية والدبلوماسية فإذا أصر العدو على البغي والعدوان نازله الجند المسلم معتمداً على الله تعالى ثم على إعداد القوة التي أمر الله بها. (وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّة وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِه عَدْوَّ اللّه وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ)(الانفال:٦٠)

.روى عقبة بن عامر الجهني –رضي الله عنه– قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر يقول : (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة، ألا إن القوة الرمي .. ألا إن القوة الرمي) [١٦] هذا الحديث فيه إعجاز ظاهر فهذا التكرار للرمي لا يقتصر فهمه على الرمي بالسهام أو نحوها مما كان معروفاً وقت ذاك وإنما ينبغي أن يفهم ويصدق على كل قوة يرمى بها من المدافع والصواريخ ونحوها، إذ أن قوة الأعداء اليوم تتركز على الرمي من بعيد بالطائرات والقاذفات ونحوها فأين نحن من ذلك ؟ .

وهنا نسأل سؤالاً مهماً لماذا كان الجهاد والقتال ضرورياً ؟

الجواب إن الدنيا لا تستقيم كما يريد الصالحون ولا يخلو العالم من الأشرار الذين لا تنفع معهم الدعوة أو الموعظة ولهم إرادتهم الشريرة إذ يحذر الله المؤمنين بقوله (وَاللّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً) (النساء ٢٧). أنهم لا يكتفون بالإرادة أو التمني وإنما يعملون لإفساد الحياة والصد عن سبيل الله ومع ذلك فهم (الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً)(الكهف ١٠٤).

فلنتأمل أول سورة محمد صلى الله عليه وسلم حيث نقرأ (الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّه أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ × وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّد وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ × ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) (محمد:١-٣)، ثم يأتي الأمر بالقتال حتى تضع الحرب أوزارها ولا يكون ذلك إلا بقوة الردع الغلاب .

إن المسلمين يسمعون اليوم بقوة الردع، وبتوازن القوى، ولا يكادون يفعلون شيئاً من ذلك مع أن كتابهم الذي يقدسون تتوالى فيه الآيات حثاً على الجهاد والقتال لردع العدوى، قال تعالى : (وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ) (البقرة ١٩٠)

ويقول لهم سبحانه : (انْفِرُواْ خِفَافاً وَثِقَالاً

وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ) (التوبة ٤١).

نعم إن الجهاد خير لهم لو كانوا يعلمون فهذا الذي يحدث اليوم من القتل والتشريد بيد الأعداء في فلسطين والعراق وأفغانستان وغيرها إنما كان بتقاعس حكام المسلمين عن القتال ولما رأى بعض الشباب هذا التقاعس دخلوا في حرب غير متكافئة مع العدو فحدثت الكوارث من دعوى الإرهاب أو إزهاق الأرواح والطاقات. فما العلاج ؟.

العلاج في التمسك بقوله تعالى: (فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللّهِ فَيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً× وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيراً× الَّذِينَ آمَنُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُواْ أَوْلِيَاء الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفاً)(النساء ٧٤-٧٦).

وفي حالة عدم الإستعداد للقتال فهناك وسائل أخرى ينبغي الأخذ بها:

أولاً: السعي لتملك القوة العلمية فالعلم أفق ممتد لا حدود له، فالكشوف والمخترعات أصبحت اليوم في متناول الباحثين فأبناء المسلمين الذين يعملون في الغرب وفي جامعات الدنيا عليهم العبء الأكبر في نهضة الأمة العلمية ولا حجة لعالم في دعوى عدم الإمكانات المادية فجُل المخترعات التي أدهشت الدنيا قام بها أفراد معدودون !!

ثانياً: تملك القوة الإقتصادية ونستطيع أن نضرب مثلاً بألمانيا واليابان فقد خرجتا منهزمتين من الحرب العالمية الثانية فركزتا على كسب القوة الإقتصادية والمالية حيث سخرتا جهود الأفراد والشعوب للوصول لهذا القوة الإقتصادية، فخرجتا من الحصار العسكري إلى فاعلية القوة المالية التي فجرتها قوة الإرادة وقوة البحث العلمي.

ثالثاً: قوة التماسك البشري والوحدة، التي هي في حقيقة الأمر عبادة يغفل عنها الساسة والحكام فإذا كانت وحدة أمم تحسبهم جميعاً وقلوب شتى تحاول تدمير حضارتنا فإن وحدة الصف المسلم أوامر مستديمة نزلت فيها آيات الكتاب المبين قال تعالى: (وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَاناً وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ) (آل عمران ١٠٣) وجاء بعد هذه الآية التحذير الخطير من الفرقة والشتات (وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا

جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) (آل عمران ١٠٥) .

ما أعجب ما نسمع ونقرأ هنا وأشد عجباً أن نرى التنازع والفشل بين الحكام المسلمين وبين الشعوب والجماعات والمجتمعات وهم يقرأون هذا الوحي وهو الحق من ربهم، إن العذاب العظيم ليس أخروياً وحده، نعم إنه لعذاب تقشعر منه الأبدان ولكننا نرى رأي العين العذاب العظيم في شعوب تفرقت وفي أمة تنازعت على كراسي الحكم والمغانم والسيادة، إن إسوداد الوجوه بعد كل هزيمة في الحكام والشعوب تعجز عن تصويره كاميرات المصورين، ومع نلك ..

رابعاً : النظر في مناهج التعليم المدرسي والجامعي ومناهج التدريب حتى في القطاعات العسكرية والأمنية حتى نحافظ على تماسك الشخصية المسلمة وتحصينها من الإستتباع الثقافي والحضاري ولرد هذه الغزوات الفكرية والثقافية وإذا كان الأمل ضعيفاً في فعل الحكومات الحالية أو تحركها فإن على المجتمعات الدور الأعظم في ترسيخ القيم من خلال البيوت والمدارس والجامعات الحرة من خلال جهود المعلمين والأساتذة المربين، هذا هو السبيل للخروج من أزمة الأمة العقدية والأخلاقية .

الفصل الرابع

صناعة المستقبل :

المبحث الأول : نشر العلم والمعرفة :

من شروط النصر والتمكين، التخطيط الحكيم والتفكير السليم لصناعة المستقبل، ولا يكون نلك بالأماني وحدها، وإنما بتدبر التاريخ، وقراءة الحاضر والنفاذ بنظرة ثاقبة للمستقبل، ومن عجب أن التخطيط الإستراتيجي الذي نشأ في الأجواء الحربية هاهو منذ أمد بعيد ينفذ إلى الحياة العامة في الإقتصاد والتربية والإجتماع وخلافها فضلاً عن الإحتفاظ بذات المحيط العسكري الذي نشأ فيه .

لقد تناولنا في الفصل السابق ضرورة الإهتمام بالعلم ودفع الكشوف فيه لكن نلك لا يتم إلا بالتخطيط المستقبلي لإزدحام العلوم المختلفة . العلم الكوني الطبيعي، والعلم الشرعي القائد لكلٍ، والعلم الإجتماعي الذي يشخص الأدواء ويضع ناجع الدواء .

إن القول المأثور الذي ينسب للامام علي وفحواه (العلم يزكو بالإنفاق) فُهِم على أن إنفاق العالم لعلمه يزيده علماً وهذا حق لا نماري فيه، لكن العلم يزكو أيضاً بالإنفاق عليه، ولقد إستشهدنا في غير هذا البحث أن عصر النهضة العلمي في العصر العباسي كان يقول الخليفة فيه لخازن بيت المال : كم أنفقت على العلم والعلماء ؟ فيقول الخازن :

ثلث ما في بيت المال !! فيقول الخليفة : إذن أضعنا العلم والعلماء !! .

ونحن في عصرنا هذا نطالب بـ ١٪ من الدخل القومي للتعليم أو البحث العلمي فلا نحس بسميع أو مجيب .

إن الأمر يتطلب عزيمة قوية، وترشيداً للصرف الباذخ حتى تترابط وسائل العلم والمعرفة بالإنفاق الذي يوفر كل مطلوب، أليس من المعيب أن تفرض الجمارك على وسائل التعليم والبحث العلمي وتفرض الضرائب على قرائح العقول المنتجة، وكارثة أخرى حاقت بالأمة من جراء ما سُمي بالملكية الفكرية، لقد كان العلم مشاعاً إحتساباً قبل أن يدخل في بورصة البيع والشراء أما الآن فان بعض العلماء يرون أن إصدار كتاب أو إنتاج إختراع أو حتى نشر رسالة دون الحصول على ثمنه خرط القتاد، فمتى تنهض الأمة إذا كان ثمن النهوض هو المادة لا غيرها .

المبحث الثاني

الهداية :

إن الذي يسعى له الفرد المسلم العادي فضْلاً عن العالم هو الهداية الشخصية بتزكية النفس -كما أشرنا من قبل- وهداية الناس لدين الله تعالى لإرتياد آفاق المستقبل القريب في هذه الدنيا والمستقبل الآجل في الآخرة وهذا هو الذي يعنينا في هذا الفصل، فإذا كان الأفراد ومجموع الأمة تسعى لهداية الحاضر فإن الله تعالى يتكفل لهم بهداية المستقبل قال تعالى : (وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ) (محمد ١٧) .

إن من شروط النصر والتمكين دعوة غير المسلمين إلى دين الإسلام وفق المنهج القرآني في قوله تعالى : (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ) (النحل ١٢٥).

إن وحدة الأمة على منهج راسخ يمكّن لأية أمة بين الأمم، فوحدتها الفكرية والعقدية تجعلها مهابة الجانب متناسقة الغايات والأهداف – هكذا كان المنهج النبوي يرفع النداء إثر النداء لأهل مكة "يا قوم قولوا لا إله إلا الله تفلحوا" [١٦] وكان صلى الله عليه وسلم يخرج إلى القبائل ويدعوها إلى الله تعالى، وخرج إلى الطائف فلقي ما لقي من الأذى لم يمنعه ذلك من المضي في طريق الدعوة، وفي مقدمة ابن خلدون حديث راشد من قوة الأمم وضعفها لعوامل عديدة ينبغي أن يحسب حسابها . [١٧].

المبحث الثاني

الرعاية :

الرعاية هي الإهتمام بالأمر وملاحظته والتدبر في عاقبته أين يصير . والرعاية تشكل مع الهداية نظاماً يقوّي رابطة الإيمان والإسلام في النفوس، ولذا كانت الرعاية في مرتبة عظيمة بعد الهداية، فالإنسان الذي هداه الله تعالى للإسلام وانتقل من محيطه الذي كان فيه يحتاج إلى الرعاية الكافية حتى يثبت على إسلامه ويخرج من حياة الكدر إلى الصفاء ومن الحاجة إلى الكفاية .

ونلاحظ أن تأليف القلوب من مبادئ الدين العظيمة، تأليف بالملاطفة، وتأليف يحفظ الكرامة والمكانة، وتأليف بالعطاء المادي .. ولذا لما شُرعت الزكاة كان من مصارفها المهمة "المؤلفة قلوبهم" وذلك يرتب للمهتدي للإسلام أوضاعه المادية ثم يعيش بين المسلمين أخوة الدين (فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته) [18].

إن من مقاصد الدين العظيمة الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد وهذان أمران يحتاج فيهما إلى التناصر والتعاضد والتعاون، وأخوة الإسلام ورعاية المهتدين تحقق هذه المقاصد، ويوم أن يكون مجتمع المسلمين كالبنيان المرصوص يستعصي على الهدم أو الإختراق وهذا هو الطريق الذي يؤدي إلى النصر والتمكين .

خلاصة البحث

الحمد لله تعالى الذي وفق لإتمام هذه المباحث، وكان في مقدمتها الإيمان ولوازمه، ثم ما يهدي إليه من العمل أو الفعل الحضاري الذي يبني نهضة الأمة بما في ذلك إتقان العمل الشعائري والحياتي، وأوضح البحث أن هذا لا يتأتى إلا بجهاد النفوس أولاً ثم إصلاح المجتمع ثانياً أمراً بالمعروف ونهياً عن المنكر، فإذا استقام المجتمع على قواعد الدين وأصبح كالبنيان المرصوص وجب عليه جهاد الدفع لحراسة الدنيا والدين .

أوضح البحث كذلك أن من سنن الله الكونية دوام الصراع بين أهل الحق وأهل الباطل (ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ) (محمد ٣)

إن الكافرين لا يكتفون بإختيارهم الكفر ولكن منهجهم الصد عن سبيل الله والعدوان المتكرر على أهل الحق، فهل يقف الصف

المسلم متفرجاً ؟ أوضح البحث أن جهاد الدفع واجب على الحكام كما هو واجب بأساليب شتى على أئمة المسلمين وعلمائهم وعامتهم .

أبان البحث أيضاً أن صناعة المستقبل الإسلامي تحتاج إلى جهود كبيرة في التخطيط والتنسيق والتمويل، وهذا إنما يتحقق بتوثيق عرى الإخاء في الله وإيثار الحياة الباقية على الفانية، فبذل الجهود في الهداية والرعاية يقود إلى تقوية لُحمة المجتمع فيكون كالبنيان المرصوص الذي يحبه الله تعالى من المؤمنين، زيادة في العدد والمدد .

وخُتم البحث بان من مقاصد الدين العظيمة الثبات في الأمر والعزيمة في الرشد تناصراً وتعاضداً وتعاوناً وهذا هو الطريق الذي يؤدي إلى النصر والتمكين .

والله المستعان

الهوامش والمراجع

١- مجلة المنبر – هيئة علماء السودان .

٢- صحيح البخاري رقم (٢٤٤٦) ومسلم (٢٥٨٥/٦٥).

٣- سنن أبي داود رقم (٤٣٣٨) وهو عند الترمذي والنسائي وصححه الألباني .

٤- الإمام البصيري .

٥- صحيح البخاري برقم (٢٤٩٣) .

٦- صحيح مسلم (٢٦٩/٦٨) .

٧- تاريخ الطبري .

٨- صحيح مسلم (٢٥٧٨/٥٦) .

٩- المصدر السابق (٢٥٦٤/٣٢).

١٠- رياض الصالحين للإمام يحيى بن شرف النووي تحقيق وتخريج رضوان جامع رضوان، القاهرة مكتبة أولاد الشيخ للتراث صد ٤٢٠ .

١١- صحيح البخاري (٢٦٢٠) .

١٢- صحيح مسلم (٢٥٤٣/٢٢٦).

١٣- صحيح البخاري رقم ٧١١٢ ج ٦ ، ٢٧٤٥

١٤- البخاري رقم (٢٩٦٥) ومسلم (١٧٤٢/٢٠) .

١٥- المصدر السابق (١٩١٧/١٦٧).

١٦- السنن الكبري رقم ٣٦١ ج ١ ص ٧٦ .

١٧- المقدمة عبدالرحمن بن خلدون، تحقيق حامد الطاهر، دار الفجر ، القاهرة ٢٠٠٤.

١٨- صحيح البخاري (٢٤٤٢) ومسلم (٢٥٨٠/٥٨)